
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

المجموعات القبلية البدوية وتأثيرها على الحياة الإجتماعية والسياسية بافريقية اثناء العهد الحفصي

ابراهيم جدلـــة
كلية الآداب منوبـــة

لقد تعمقت ظاهرة البداوة بإفريقية في العهد الحفصي بشكل ملفت للإنتباه. وهي بداوة من نوع جديد يمكن نعتها بكونها "مزمنة" لأنها حسب ما يبدور فضت الإستقرار وفشلت في الوصول إلى السلطة لكنها كانت في الكثير من الأحيان مؤثرة في المشهد السياسي حاضرة في كل التحولات سلبية كانت ام إجابية وشاركت في إعادة تركيب هذا المشهد بصفة مستمرة مدة ثلاثة قرون ونصف. فكانت "داء لا بد منه للسلاطين" ونقمة فعلية للسكان الحضر وفقهائهم.

ولا ينفي ذلك مدى تأثير هذه المجموعات على مختلف المستويات خاصة على المستوى الاجتماعي والسياسي. فهي منذ البداية قد خضعت لحركية جغرافية واجتماعية متواصلة وفرضت على المجتمع المحلي التعامل مع كل تحول جديد حسب ميزان القوى الممكن في حينه. لكن أهم مظهر لهذه الحركية يبقى تلك العلاقة المتأرجحة مع السلطان من التحالف إلى التصادم وقابلية تغيير التحالفات في كل وقت وهو ما يجعلنا نتساءل

عن هدف العصبيات القبلية في زمن ابن خلدون هل هي البحث عن السلطة ام خدمة السلطة ؟ وهل نحن بصدد تجاوز مفهوم "الدولة الخلدونية" إلى نمط ثان من الدولة مستقل عن العصبية المؤسسة وعن المجتمع ككل.

I- البداوة المزمنة : استقرار مرفوض أم استقرار مستحيل ؟

1- ظاهرة قديمة :

إلى جانب الإستقرار عرفت بلاد المغرب ظاهرة البداوة منذ أقدم العصور مع العلم أن البداوة تسبق دائما مرحلة الإستقرار. وقد ذكر ابن خلدون : "أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها.." [1]. وبلاد المغرب بإعتبارها منطقة قاحلة قليلة السهول وتندر فيها الأنهار مؤهلة أكثر من غيرها لتقدم الحياة الرعوية والبدوية. كما أن التوازن بين نمطي العيش هش إلى درجة أن العلاقة بين المجتمعين كثيرا ما تتجه نحو العنف والعنف المضاد. ومنذ العهد الروماني كانت حدود إفريقية الرومانية المحصنة (Le Limes) عبارة عن مواقع متقدمة جعلت خصيصا لصد تقدم المجموعات البدوية التي عجزت الإمبراطورية الرومانية عن إحتوائها وإدماجها ... وقد كانت حركة التعمير الرومانية قد تمت على حساب هذه المجموعات التي تم إبعادها أكثر نحو المناطق الصحراوية والتي سرعان ما تعود في فترات الإضطراب وضعف الدولة.

ويمكن القول أن الأوضاع لم تتغير في الإتجاه السلبي بعد دخول العرب المنطقة وأسلمتها. فالصراع السياسي كان قبل كل شيء بين العرب الفاتحين والبيزنطيين من أجل السلطة السياسية. أما الصراع الإجتماعي بين العرب والبربر فقد دام مدة نصف قرن (مقاومة كسيلة، ثم

---

1) ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1960، ج I، ص 214

الكاهنة...) لكنه انتهى لصالح العرب الذين استقروا في المدن فقط وظلت الأرياف والبوادي بيد البربر. ونتيجة لذلك يمكن اعتبار أن فترة السيطرة العربية الأولى لم تغير الأوضاع السابقة للحضور العربي بالمنطقة والملفت للإنتباه أن المصادر لا تحدثنا البتة عن مظاهر صراع بين مناطق الإستقرار والمجموعات البدوية بإستثناء ذلك الصراع الإجتماعي- السياسي بين العرب والبربر والذي اتخذ في الكثير من الأحيان شكل معارضة مذهبية (مثل معارضة الخوارج للسلطة المركزية...). ويمكن تفسير ذلك بالسياسة العربية المرنة من جهة وبإدماج المجموعات البدوية في الحلقة الإقتصادية من جهة أخرى حيث لعبت هذه المجموعات دورا إيجابيا في المبادلات التجارية عبر الصحراء. لذلك رغم أننا على علم بوجود قبائل بربرية بدوية خلال القرون الأولى مثل زناته وهوارة ولواته... فإن ظاهرة البداوة لم تتخذ حجما مفزعا أو حتى ملفتا للإنتباه.

وسننتظر منتصف القرن الخامس هجري (بداية من 443 هـ) لكي تندلع أعظم أزمة بين عالم الإستقرار وعالم البداوة بإفريقية والتي تضاعفت تأثيراتها في القرون الموالية. وقد جاءت هذه الأزمة نتيجة تدخل عناصر خارجية عن المنطقة (قدوم الهلاليين) وهو ما يجعلنا نتساءل عن أسباب هذا التحول الهام بعد استقرار دام قرابة أربعة قرون ونصف :

- هل أن طبيعة الوافدين الجدد هي التي تسببت في هذه الأزمة العميقة ؟

- هل أن أعدادهم الهامة هي التي تسببت في انخرام التوازن بين عالم الإستقرار وعالم البداوة بالتالي خلقت هذه الأزمة ؟

- هل أن المنطقة كانت تتجه بطبيعتها نحو الأزمة وجاء القادمون الجدد (الهلاليون) ليعمقوها ؟

- هل أن ما حدث بإفريقية بداية من منتصف القرن الخامس هجري لا يختلف كثيرا عما وقع ببقية أنحاء العالم الإسلامي التي اتجهت كلها وفي نفس الفترة نحو التأزم ؟

2- الزحف الهلالي أوالبداوة المستوردة :

إثر نبذ الدعوة الشيعية من طرف الزيريين قرر الفاطميون معاقبة هؤلاء بإرسال مجموعات بدوية كانت مستقرة بالصعيد المصري وتوجيهها نحو إفريقية [2]. وقد وصلت المجموعات الأولى منهم إلى المنطقة سنة 443 هـ وتواصل توافدهم بعد ذلك بكثير. وتتكون هذه المجموعات البدوية أساسا من بني هلال ومن بني سليم.

أ- من هم الهلاليون ؟

تعودنا على إطلاق تسمية "هلاليين" على مجموع القبائل البدوية العربية التي وفدت على افريقية منذ سنة 443 هـ. وهي في الحقيقة قبائل مختلفة أهمّها البطون المنتمية لبني هلال والبطون المنتمية لبني سليم.

- الهلاليون [3] :

ينتمي الهلاليون إلى : هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر. تذكر المصادر بأنهم كانوا يقطنون الحجاز ونجد ثم أقام جزء منهم بالشام بعد ظهور الإسلام. وكان الهلاليون يمثلون إحدى بطون هوازن التي حاربت الرسول وانتصر عليها في حنين سنة 8هـ/630 م. وبعد الإسلام لم يشارك هؤلاء في الردة التي قامت بها العديد من القبائل

---

2) حول هذه المسألة أنظر:

DAGHFOUS, De l'origine des Bani Hilàl et des Bani Sulaym, *les Cahiers de Tunisie, n° 1-92, t23, 1975, pp. 41-68*

3) أنظر مثلا : القلقشندي (أبو العباس أحمد)، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، 1991، ص 473 ولنفس المؤلف، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، دار الكتاب اللبناني بيروت، 1982، ص 117 وما بعدها.

البدوية. وقد أصبحت لهم علاقة تصاهر مع قبائل قريش وخاصة مع بني هاشم [4]... لذا نفترض أن جزء هاما منهم قد اتجه نحو الإستقرار منذ وقت مبكر. كما هاجرت بعض بطونهم إلى مصر منذ بداية القرن الثاني هجري. ولا تتحدث المصادر عن الهلاليين بوصفهم مصدرا للفوضى وأعرابا همجا إلا أثناء ذكر تحالفهم مع القرامطة أثناء القرن الرابع هجري(أي مع بداية تأزم الأوضاع السياسية بالعالم الإسلامي بصفة عامة).

وحسب ما ورد في المصادر تنحدر كل بطون بني هلال من أبنائه الخمسة: شعبة وناشرة وعبد مناف وعبد الله ونهيك [5].

ومن أشهر بطونهم : بنو قرة- بنو بعجة- بنو حرب- بنو رياح.

- بنو سليم [6] :

وهم ينتسبون إلى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر. كانت لهم علاقة تحالف وتصاهر مع القرشيين قبل الإسلام فعبد مناف تزوج عاتكة بنت مرة السلمي وكان له منها ثلاثة أولاد : هاشم وعبد شمس والمطلب. وإن كانوا قد قاوموا الرسول في بداية دعوته فإنهم كانوا إلى جانبه يوم فتح مكة وأصبح لهم دور هام في حركة الفتوحات الإسلامية. ومثلما هو الشأن بالنسبة لبني هلال فإن ما أوردته المصادر عن بعض بطون بني سليم بكونها مشاغبة وعدائية وترفض حياة الإستقرار والمركزة السياسية فهو يرجع للقرن الرابع هجري عندما تحالفوا مع القرامطة (من بني عقيل بن كعب). مع العلم أن عدة بطون من بني سليم قد استقرت بمصر منذ بداية القرن الثاني هجري (109هـ) وربما انتقلت بعض هذه البطون إلى منطقة برقة إثر ذلك [7].

---

4) لقد تزوج الرسول من بني هلال : ميمونة ثم زينب أم المساكين، القلقشندي، قلائد الجمان، ص 117

5) قلائد الجمان، ص 118

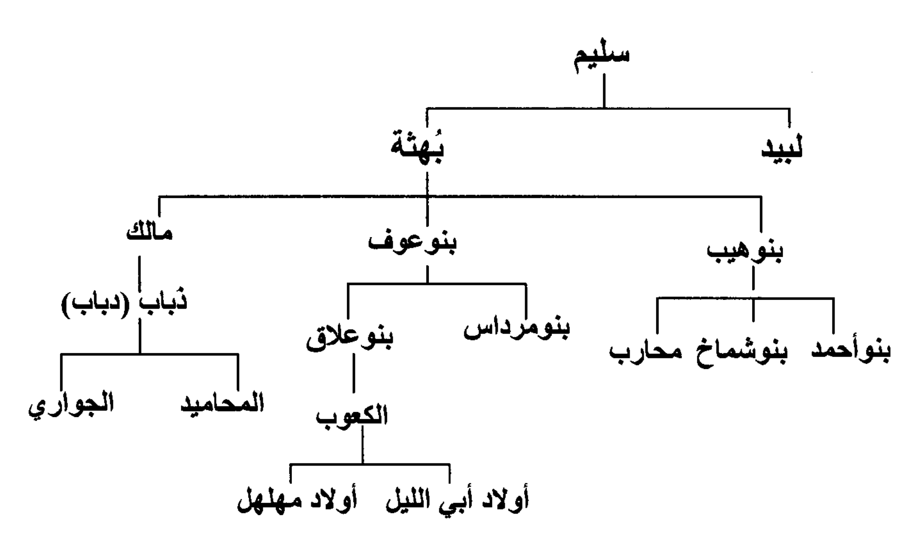
6) نهاية الأرب، 294-295

7) قلائد الجمان، 119

- المجموعات التي دخلت إفريقية :

بالنسبة للهلاليين بقيت بعض المجموعات منهم بالصعيد المصري أما أهم بطونهم التي تحولت نحو إفريقية فهي : زغبة ورياح (منهم مرداس وفادع) والأثبج (منهم دريد وقرفة) وبنوقرة. ومع هؤلاء نجد العديد من البطون الأخرى من غير بتي هلال من فزارة ومن غطفان (مثل أشجع) [8]. وبني عبس الذين اختلطوا بزغبة... ويذكر ابن خلدون بأنهم مندرجون كلهم في هلال وفي الأثبج بصفة خاصة. وهكذا نلاحظ أن المجموعات الهلالية لم تكن متجانسة بل تتكون من مجموعات مختلفة الأصول ربما ربطت بينها علاقات الولاء والتحالف والتصاهر...

أما بالنسبة للمجموعات المنتسبة لبني سليم والتي اتجهت نحو الغرب فقد استقرت مدة بين برقة وطرابلس ثم تحولت نحو افريقية ومن أهمها بطون ذباب (منهم : المحاميد والجواري) وبطون بني عوف (منهم بن مرداس وبني علاق : الكعوب وولاد أبي الليل...).



---

8) ابن خلدون، العبر، بيروت 1960، VI، 120

ب- انتشارهم بإفريقية :

رغم أننا متيقنين بأن الهلاليين كانوا قد تقدموا بني سليم نحو إفريقية فإن الأخبار تتناقض حول أماكن إنتشار هذه المجموعات وحسب ما ذكره ابن خلدون نجد زغبة سنة 445 هـ حول القيروان ثم يتحدث عنها في منطقة طرابلس سنة 446 هـ [9]. ولعل عدم الضبط هذا يرجع إلى كون مصدرنا الأساسي حول انتشار هذه المجموعات هو ابن خلدون الذي اعتمد أساسا على روايات سمعها في فترة متأخرة عن الأحداث بأكثر من ثلاثة قرون.

ومن المؤكد أن المجموعات الأولى كانت متكونة من رياح وزغبة ونعرف أن أمير مرداس بن رياح : مؤنس بن يحيي الصنبري كان من أوائل من دخل افريقية. لكن الأوضاع لم تستقر لمجموعة واحدة بسبب حركية هؤلاء وبسبب الصراعات الداخلية بينهم وعملية الدّفع نحو الغرب إضافة لتفرق هذه المجموعات لنصرة هذا الأمير أو ذاك. وفي سنة 466 هـ تمكنت رياح من دفع زغبة نحو الغرب وطردها من إفريقية [10]. وفي سنة 491 هـ خرجت عدي أيضا من إفريقية أمام رياح [11] وفي نفس الوقت جلب هذا الفراغ مجموعات سليم التي جاءت من جهات طرابلس لتستقر قرب قابس (مرداس وعلاق).

وبصفة عامة يمكن القول أنه طيلة الفترة السابقة لقدوم الموحدين (من 444 هـ إلى 555 هـ) تمكنت رياح من السيطرة على إفريقية وضواحي قسنطينية ومنطقة الزاب (حيث نجد الدواودة إلى جانب ابن غانية في حربه ضد الموحدين). وفي نفس الوقت انتشرت زغبة في

---

9) العبر، VI، 33

10) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت 1980، I- ص 300

11) ن م، I، 303

منطقة المغرب الأوسط إلى جانب مجموعات أخرى صغيرة مثل : المعقل وجشم وقرة. أما بطون سليم فيبدو أنها لم تتجاوز قابس نحو الشمال والغرب إلا بعد قدوم الموحدين.

ويمكن القول أن أهم صعوبة تعترضنا هو تقييم عدد هؤلاء الوافدين لأن المصادر لا تقدم لنا أي رقم سوى أسطورة : الثلاثة آلاف فارس من الهلاليين الذين قابلهم جيش زيري يضم 30 ألف فارس و30 ألف راجل (حسب ابن الأثير) [12] أو ثمانين ألف فارس ومثلهم من الرجالة (حسب ابن عذاري الذي اعتمد على رواية ابن شرف) [13]. وإذا انطلقنا من عدد الجيش المهزوم فبإمكاننا الإفتراض أن عدد أفراد المجموعات الهلالية لا يمكن أن يكون أقل منه خاصة أنها تقدمت بصفة مذهلة على حساب الجند النظامي الزيري وكذلك على حساب التحالفات القبلية البربرية (صنهاجة - زناتة).

وبالإمكان افتراض أن عدد المقاتلين الهلاليين أثناء الموجة الأولى من تقدمهم لا يمكن أن يقل عن 30 أو حتى 40 ألف مقاتل وإذا ما احتسبنا النساء والأطفال والشيوخ فإن العدد الجملي يمكن أن يرتفع إلى 200 ألف شخص. وقد تواصل توافد القبائل البدوية من الصعيد المصري وجهة برقة حتى قدوم الموحدين أي طيلة قرن من الزمن. وقد تضاربت الآراء حول العدد الجملي لهؤلاء فقد قدره أحمد توفيق المدني بنصف مليون شخص وحسن حسني عبد الوهاب بين خمسمائة وسبعمائة ألف وجورج مارسي قرابة المليون... [14] ومهما يكن من أمر فإن تأثيرهم البعيد المدى سياسيا وعسكريا وثقافيا يجعلنا نميل إلى أن عددهم كان هاما وربما وصل إلى نصف مليون نسمة.

---

12) ابن الأثير(عز الدين أبو الحسن علي)، الكامل في التاريخ، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت 1994، VI، 123. (أنظر أيضا، العبر، VI، 32-33)

13) البيان المغرب، I، 290

14) G. MARÇAIS, Les Arabes en Berbérie, Paris 1913, p.733.

ج- نمط جديد من البداوة :

كان الزحف الهلالي عبارة عن دفق بشري هام في وقت كانت فيه إفريقية تشكو من النقص على المستوى الديمغرافي. لذلك مثل هؤلاء إسهاما بشريا هاما، غير أن هذه العناصر البشرية الجديدة لها ميزاتها الخاصة من حيث نمط العيش والعادات والتقاليد... وقد استقر الهلاليون ببوادي إفريقية وخاصة بالمناطق المنبسطة وكان هذا الإستقرار على حساب السكان الأصليين مما جعل العديد من سكان البوادي من الفلاحين يلجأون إلى الحواضر كما أن جزء آخر من السكان التجأ إلى المناطق الجبلية والأنجاد الوعرة. هذه الوضعية الجديدة خلقت تناقضا دام عدة قرون بين سكان الحضر والهلاليين من جهة وبين هؤلاء وسكان الجبال من جهة أخرى. وقد عبرت عن هذه التناقضات كتابات الأدباء والمؤرخين وفتاوى الفقهاء وهي تعكس دائما وجهة النظر الحضرية التي تبدو وكأنها على طرف النقيض مع مقومات عيش القبائل البدوية العربية وتصرفاتهم وعقلياتهم.

- الحياة القبلية والإمتزاج العرقي :

مع قدوم الهلاليين أصبح النمط الإجتماعي والسياسي السائد يرتكز على القبلية أي على تنظيم داخلي متماسك تلعب فيه الروابط الدموية دورا أساسيا. ورغم ذلك فإن افريقية قد عرفت نوعا من الإمتزاج العرقي التدريجي على حساب السكان المحليين لصالح المجموعات الوافدة. وقد ساعد على هذا الإمتزاج (السلبي بالمسبة للسكان المحليين : أي العنصر البربري) عامل العدد من جهة وعامل اللغة من جهة أخرى. ولذلك يمكن القول أن المجموعات الوافدة لم تنصهر بسهولة في المجتمع المحلي كما أن تأثيرها على مستوى نمط العيش كان محدودا. فإذا ما استثنينا تعميق حياة البداوة والترحال يصعب إثبات مدى تأثير الهلاليين على المجتمع المحلي بخصوص اللباس والأكل إذ نرجح أنهم تأثروا تدريجيا بما وجدوه بالمنطقة خاصة بالنسبة للمجموعات التي تغادر المناطق الصحراوية

لتستقر نهائيا بمناطق التل وتجد نفسها مجبورة على التأقلم مع أنماط جديدة للباس والغذاء واستغلال الأرض وتربية الحيوانات (الغنم عوض الإبل) وهو ما يجعلها تتأثر حتما بأنماط العيش المحلية. ويمكن أن نسوق نفس الملاحظة على مستوى العمران إذ أن الهلاليين لم يحاولوا تأسيس مدن جديدة أو حتى توسيع المدن التي تمكنوا في فترات معينة من الإستقرار بها (قابس، القيروان، سوسة، المعلقة).

- تأثير عميق على مستوى اللغة :

ما من شك أن أهم جانب إيجابي في تأثير الهلاليين على الأوضاع المحلية يتمثل في انتشار اللغة العربية خارج المدن الهامة التي كانت قد عربت منذ الفتح. أما الأرياف وحتى بعض المدن الداخلية مثل قفصة وبلاد الجريد فقد كان سكانها يتكلمون البربرية أو لغة لاتينية محلية مثلما لاحظ ذلك الإدريسي [15]. وإثر الزحف الهلالي انحسرت اللهجة البربرية بإفريقية في بعض المناطق الجبلية أو المعزولة في حين أن اللغة العربية اكتسحت جميع المناطق الحضرية منها والريفية وحتى بعض التجمعات القبلية البربرية الكبرى مثل قبيلة هوارة التي قال عنها ابن خلدون : "وصاروا ظواعن في عداد الناجعة عرب بني سليم في اللغة والزي وسكنى الخيام، وركوب الخيل، وكسب الإبل، وممارسة الحروب، وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلولهم، وقد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها بفصاحة العرب فلا يكاد يفرق بينهم" [16].

ويؤكد العلامة حسن حسني عبد الوهاب أن لهجة الهلاليين قد تسربت أيضا إلى كلام الحضر وأثرت فيه. وما ميز هذه اللهجة هو نطق القاف بصيغة "القاف المعقود "(ق)". مع العلم ان الهلاليين أيضا تأثروا

---

15) الإدريسي (أبو عبد الله محمد)، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق محمد حاج صادق، الجزائر 1983، ص 139

16) العبر، VI، 288

ببعض أشكال النطق البربري مثل إبدال الجيم بزاي (الجازية = الزازية أويجوز = يزوز...) [17]. وهذا التأثير والتأثر على مستوى لغة التخاطب كان من العوامل الهامة في امتزاج العناصر الوافدة بالمجموعات المحلية. ورغم هذا الإمتزاج التدريجي فقد ظل التناقض حادا بين هذه المجموعات البدوية والسكان الحضر. وقد أظهرهم هذا التناقض في شكل أعداء للمؤمنين مخالفين لتصرفات المسلم الحقيقي وصورت بداوتهم على أنها كفر.

- بداوة مناقضة للدين أم للحضر ؟

يحمل السكان الحضر عادة فكرة سيئة عن الأعراب بصفة عامة لما ورد في القرآن من نعتهم بالنفاق، وردتهم بعد وفاة الرسول، وأخيرا لما كان منهم أثناء تحالفهم مع القرامطة وأخذ الحجر الأسود من الكعبة... وعرف عن الأعراب بأن إسلامهم واه وبأن الوازع الديني لديهم ضعيف. ويظهر ذلك من خلال مواقف الفقهاء منهم وحتى موقف الشعراء مثل ابن رشيق الذي قال عنهم بمناسبة دخولهم القيروان بعد معركة حيدران :

فتكوا بأمة أحمـــد أتراهم   أمنوا عقاب الله في رمضان
والمسلمون مقسمون تنالهم   أيدي العصاة بذلة وهوان ....

لكن رغم نعتهم بكونهم عصاة ومارقين عن الدين إلى حد تكفيرهم وهو طبيعي بالنسبة لمجموعات عاشت أغلب الأوقات في مناطق صحراوية بعيدة عن العمران ولم تمارس الدين بأشكاله الملزمة (صلاة، صوم...) فإنهم لعبوا دورا إيجابيا على المستوى الديني في بعض الأحيان قبل قدوم الموحدين إلى إفريقية وذلك أنهم حاولوا في العديد من المرات مساندة التجمعات الحضرية الساحلية والسلطات بها ضد هجمات النرمان

---

17) حسن حسن عبد الوهاب، ورقات عن الحضـــارة العربية بإفـــريقية، تونس 1972، III، ص 100-101

على المهدية سنة 517هـ/ 1078 م. [18] ثم سنة 561 هـ/1121 م. كما حاول الموحدون بعد دخولهم إفريقية استعمالهم للجهاد بالأندلس ضد تقدّم المسيحيين.

وإضافة لحركة الجهاد هذه تأثر البعض من الهلاليين بالحياة الدينية المحلية وخاصة حركة الزوايا التي نشطت كثيرا أثناء العهد الحفصي والتي لعبت دورا هاما في استتابة الأعراب وحسب قول ابن خلدون جعل البعض منهم ينشط في "تغيير المنكر في أهله وإقامة السنة لهم" مثل : سعادة القائم بالسنة الرياحي [19] الذي كثر أنصاره من قومه وغيرهم. وقاسم ابن مرا من الكعوب [20]. كما كانت زوايا مدينة القيروان خاصة تستقطب الكثير من هؤلاء الأعراب.

لكن بصفة عامة ونظرا للعداء القائم بين المجتمعين: الحضري (المراقب من طرف فقهاء المالكية) والبدوي (الذي لا يخضع لأية سلطة) فقد كفر فقهاء المالكية البدوو حاربوهم باسم الدين. وهو ما أعطى صورة محددة لهؤلاء الأعراب الجدد بوصفهم "قابلين لمشروع الأسلمة" عكس أجدادهم عرب الفتح الذين جاؤوا بالإسلام قصد نشره في المجتمع المحلي (وكأننا أمام فتح مضاد يقوم به المحليون ضد الغزاة).

2- الإستقرار المستحيل أم المرفوض ؟

كان تنقل الهلاليين في البداية عبارة عن حركة سكانية من مناطق ذات فائض سكاني إلى مناطق طلب سكاني. ورغم عملية الدفع إلى الأمام الناتجة عن ضغط الجماعات الجديدة على من سبقهم فقد حاول الهلاليون الإستقرار منذ الوهلة الأولى سواء في مدينة القيروان أو في مدينة قابس

---

18) البيان المغرب، I، 309

19) العبر، VI، 81

20) ن م، VI، 160

أوسوسة أو المعلقة (قرطاج). وأكثر من ذلك حاولت هذه المجموعات تأسيس كيانات سياسية (إمارات) هذا يجعلنا نفترض أنها لم تكن ترفض الإستقرار بقدر ما كان استقرارها صعبا إن لم نقل مستحيلا. فأعداد الوافدين الجدد كانت هامة (ربما تجاوز عددهم النصف مليون) ودخلوا البلاد في فترة صعوبات مما جعل استقبالهم واستيعابهم من الأمور غير الممكنة في تلك الظرفية التي تميزت أساسا بإختلال التوازن بين الإنسان والعنصر الطبيعي وبالتحديد في منطقة السباسب وهو ما أدّى إلى تقدم فجئي وسريع للبداوة والحياة الرعوية على حساب الإستقرار المبني على الزراعة. ويذكر لنا صاحب كتاب الإستبصار في عجائب الأمصر بأنّ "القوافل كانت أثناء مرورها بين قصور قفصة تكم إبلها ودوابها لكي لا ترعى ورق الشجر لكثرته" ويضيف بأنها "اليوم (أي مع منتصف القرن السادس هجري) خربة لا أنس بها..." (21). ويذكر التجاني في رحلته بأن "الزيتون القديم المتصل المعروف بزيتون الساحل قد أذهب إفساد العرب أكثره" (22).

هذه الشهادات المختلفة تثبت أن الواقع الإقتصادي المتأزم آنذاك كان يعبر عن عجز إفريقية على استيعاب الوافدين إليها وبالتالي كان استقرارهم صعبا ممّا أدّى إلى انخرام التوازن وخلق وضعية جديدة تتميز بـــ :

- تراجع الحياة الحضرية وأنشطتها مقابل تقدم الحياة الرعوية
- انعدام الأمن الداخلي وتفكك مسالك التجارة الصحراوية
- بروز التجارة البحرية كنشاط رئيسي تحت هيمنة السلطان (مع ظهور نشاط الغزو البحري)
- بروز الإرتزاق العسكري (من طرف القبائل) كنشاط داخلي رئيسي.

---

21) مجهول، الإستبصار في عجائب الأمصار، بغداد–الرباط 1985، 154

22) عبد الله التجاني، رحلة، فاصلة الدار العربية للكتاب، تونس 1981، ص 65

II. القبائل البدوية في العهد الحفصي :

1. الإنتشار الجغرافي :

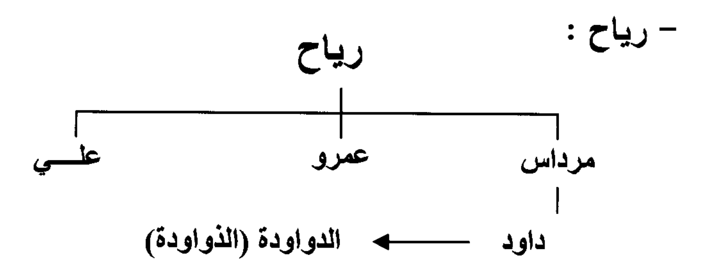
قبل ظهور الحفصيين كانت جل إفريقية تحت سيطرة قبائل رياح الهلالية في حين أن بطون سليم كانت مستقرة أساسا بين قابس وطرابلس. وأثناء الحروب بين بني غانية والموحدين تحالفت رياح مع بني غانية. ومثلت بذلك عدوا تقليديا للموحدين ثم للحفصيين من بعدهم حيث أنه لما تولى أبو زكريا الحكم وجد نفسه مجبورا على التحالف مع بطون سليم ضد رياح وخاصة الدواودة منهم. هذه التحالفات الجديدة أحدثت حركية شملت مختلفة القبائل حيث تواصلت عملية الدفع نحو الغرب خالقة جغرافيا جديدة للإستقرار. فأبو زكرياء يحي الحفصي أخرج رياح عن مواطنها واستقدم مرداس وعلاق من سليم بغرض ملء الفراغ الذي أحدثه.

وسندرس هنا كيفية استقرار هذه القبائل إثر المعادلة الجديدة أي منذ بداية العهد الحفصي.

أ- الهلاليون :

للتذكير نقول أن أهم بطونهم التي استقرت بافريقية هي : رياح والأثبج وزغبة والمعقل.

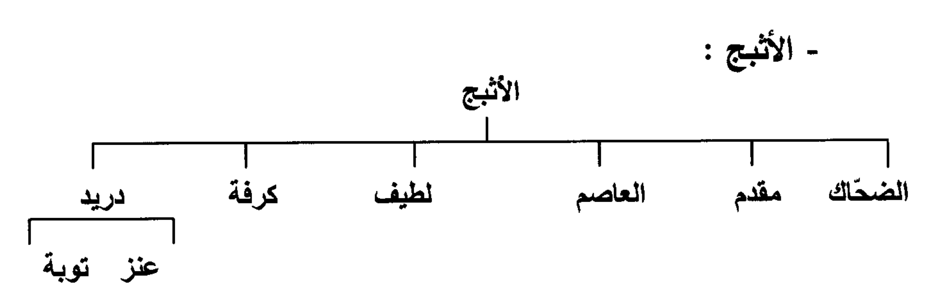
- رياح :



في العهد الحفصي أصبح الدواودة (ذرية داود) يمثلون أهم وأكبر بطون رياح ،يذكر ابن خلدون أن : "بطون رياح كلها تبعا لهؤلاء

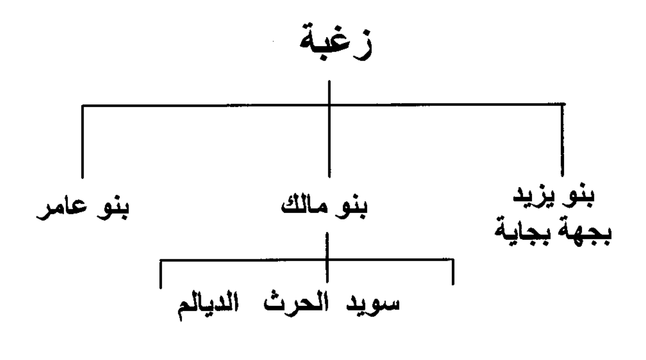
الدواودة..." [23] وفي عهده كان هؤلاء مستقرون في ضواحي قسنطينية وبجاية ومجالات الزاب وريغ وربما توسعوا نحو الشرق حتى الجنوب الشرقي حتى بلغوا القيروان وبلاد قسطيلية. وعند حديثه عن داود يفيدنا ابن خلدون بأنه : "صارت رئاسة البدو في ضواحي إفريقية ما بين قسنطينية والزاب والقيروان ووالمسيلة له ولقومه..." [24].

- **الأثبج :**



ومن أشهر بطونهم في العهد الحفصي : كرفة ودريد وكانت قبائل رياح قد دفعتهم نحو منطقة الزاب. لذلك تحالفت كرفة مع سليم والسلطان الحفصي ضد رياح. وعن دريد قال ابن خلدون : "كانوا أعزّ الأثبج وأغناهم" [25].

- **زغبة :**



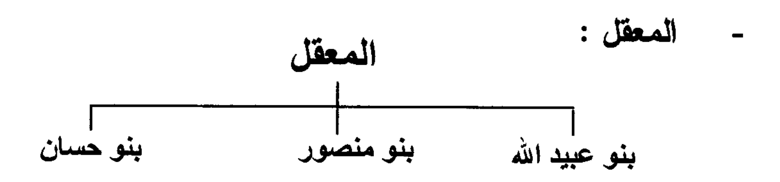
23) العبر، VI، 69-70

24) ن م، VI، 84

25) ن م، VI، 48

كانت بينهم وبين رياح صراعات وحروب استمرت حتى العهد الحفصي وتحدثنا المصادر عن الفتنة بين الطرفين أيام المستنصر. وقد تغلبت رياح على زغبة ودفتها نحو المغرب الأوسط. وأثناء حديثه عنهم يقول ابن خلدون : "وأقطعتهم الدولة الكثير من نواحي المغرب الأوسط وأمصاره في سبيل الإستظهار بهم" (26).

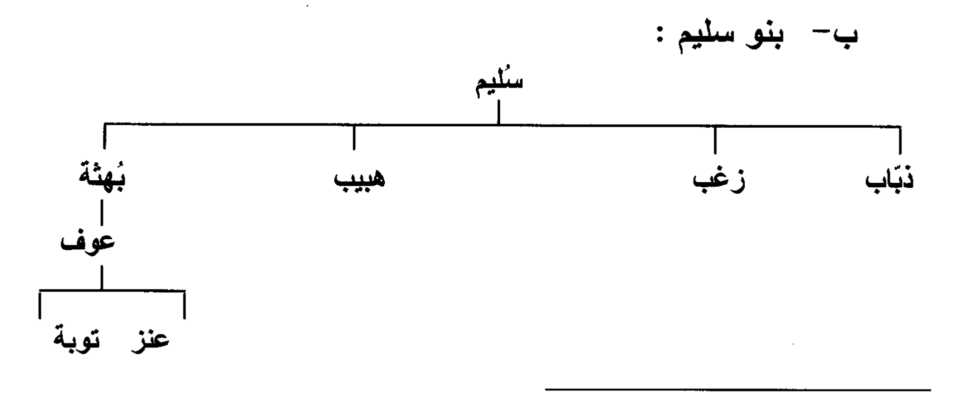
- **المعقل :**



وهم أضعف بطون بني هلال وقد استقروا قبلة تلمسان. ولم يكن لهم دور يذكر في العهد الحفصي.

بصفة عامة يمكن القول أن رياح مثلت أهم مجموعة هلالية أثناء العهد الحفصي وبما أنها كانت قد دفعت نحو الغرب بقية إخوانها من هلال (الأثبج + زغبة) فإنها كانت تسيطر وحدها على إفريقية مع بداية استقرار الحفصيين وهو ما جعلها في مواجهة مباشرة مع الحفصيين (القادمين من المغرب الأقصى) الذين كانوا مضطرين للتحالف مع قبائل سليم التي كانت حتى ذلك العهد لم تتجاوز قابس شمالا. لكن مع بداية العهد الحفصي شرعوا في تقدمهم نحو الشمال والغرب.

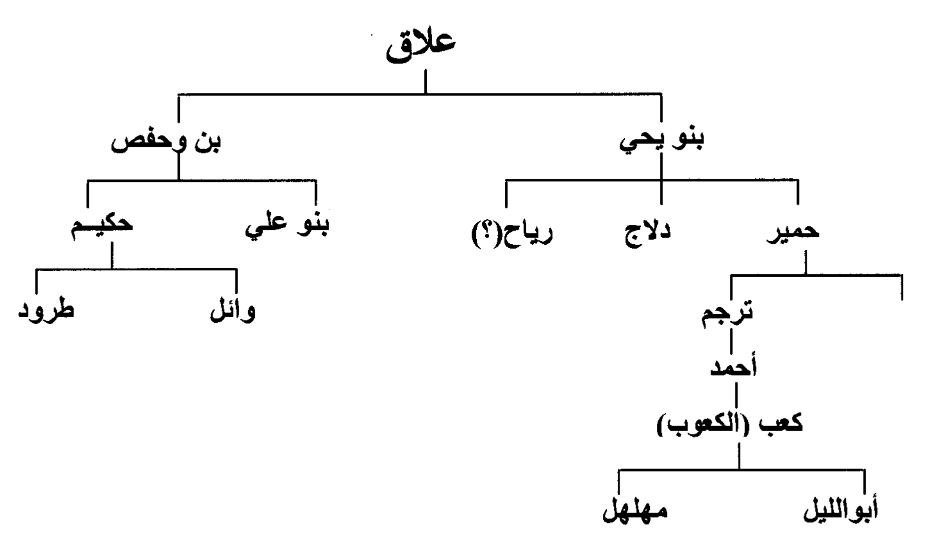
ب- بنو سليم :



26) ن م، VI،7، 8

من بين المجموعات المنتمية لسليم والتي يمكن إثبات وجودها بإفريقية:دبّاب (دباب فيما بعد) وعوف من بهثة.

وان استقرت بطون دباب فيما بين قابس وطرابلس فإن أبناء عوف من مرداس وعلاق قد دخلت إفريقية في عهد أبي زكرياء يحي الحفصي الذي أخرج رياح عنها واستقدم هذه المجموعات من بني سليم وخاصة من بني علاق الذين سيطروا بصفة مطلقة على إفريقية. وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: "وانبسطت أيدي العرب على الضاحية وأقطعتهم ا لدولة حتى الأمصار وألقاب الجباية ومختص الملك وما زالوا يغالبون الدولة حتى غلبوا على الضاحية وقاسموهم في جبايات الأمصار بالإقطاع ريفا وصحراء وتلولا وجريدا..." (27).



أما بالنسبة لإنتشارهم وأماكن استقرارهم فإننا نملك وثيقة هامة ترجع إلى بداية القرن الثامن هجري/الرابع عشر ميلادي (706هـ/1306هـ). وهي رحلة التجاني وقد كتبها صاحبها أبو محمد عبد

27) ن م، VI، 156

الله بن محمد بن أحمد التجاني الذي كان من خواص أبي يحي زكرياء (ابن اللحياني) وصاحبه أثناء تنقله بمحلته داخل السلطنة من سنة 706 هـ/1306م) إلى سنة 708 هـ/ 1308م. وأثناء وصفه لهذه الرحلة كان التجاني كلما مر بموضع يذكر لنا المجموعة التي تقطنه وبذلك ترك لنا شهادة حيّة عن أماكن استقرار العديد من المجموعات البدوية وهي كلها في تلك الفترة من بني سليم. ومن خلال هذا الوصف يتضح توزيع هذه القبائل كما يلي :

أ- بنو عوف :

- بالوطن القبلي : دلاج
- بالساحل : حكيم وطرود
- بجهة صفاقس : حصن
- حول توزر : مرداس

ب- الدبابيون : (بنو ذبّاب)

- بجهة قابس النوائل
- غربي قابس نحو نفزاوة : بنو يزيد وبنو أحمد
- من قابس إلى طرابلس : نجد الوشاحيين (بني وشاح)

ويعترضنا المحاميد ثم الجواري.

- وفي جهات طرابلس : نجد : أولاد سهيل (من العمور من بني وشاح) ثم الجواوبة كذلك نجد أولاد سنان (وهم إخوة الوشاحيين).

وبما أن رحلة التجاني قد اتبعت المسلك الساحلي فإنه لم يذكر لنا أسماء القبائل المنتشرة داخل البلاد ونحن نعرف من خلال المصادر الأخرى وأساسا ابن خلدون وهو متأخر نسبيا (بالنسبة للتجاني) أن أهم القبائل وأقواها في تلك الفترة هم الكعوب (المنحدرين من كعب بن أحمد

بن ترجم بن حمير بن يحي بن علاق بن عون بن بهثة) وحسب قول ابن خلدون : "استظهر بهم السلطان على شأنه وأنزلهم بساح القيروان وأجزل لهم الصلات والعوائد وزاحموا الدواودة من رياح... وأثبتهم في ديوان العطاء..." [28]. وانتشر الكعوب في المناطق الممتدة من سهول الفحص وباجة إلى القيروان. وأشهر بطونهم أولاد أبي الليل وأولاد مهلهل.

2- الحركية والفتنة الدائمة :

إن الظاهرة الرئيسية التي ميزت هذه القبائل منذ قدومها إلى إفريقية هي عدم الإستقرار (والبداوة بطبعها ضدّ الإستقرار : la sédentarisation). ويمكن القول أن هذه الوضعية هي ناتجة عن الإضطرار لا عن الإختيار، فانعدام التوازن بين العنصر الطبيعي والعنصر البشري وبين النشاط الزراعي والنشاط الرعوي وبين المدينة والريف وبين مفهوم الدولة (المركزة) ومفهوم الإستقلالية منعت كلها إفريقية في تلك الفترة من إستيعاب العناصر الوافدة عليها في ظروف صعبة على جميع المستويات. ونتيجة ذلك أصبحت إفريقية تعيش حالة لا سلم مستمرة إذ أن فترات الهدوء والإستقرار على المستوى الإجتماعي والسياسي هي إستثناء في إطار وضعية اضطراب أو فتنة دائمة مثلت القاعدة لعدة قرون.

أ- الحركية الجغرافية والإجتماعية :

لقد تحدثنا آنفا عن الحركية الجغرافية الناتجة عن الصراعات السياسية والعسكرية وعن تغير التحالفات حيث أنه كلما تمّ دفع قبيلة نحو الغرب إلا وتم ملء الفراغ الذي تركته بقبيلة قادمة من الشرق مثلما وقع لرياح وبعض بطون هلال التي تركت إفريقية لقبائل سليم التي ملأت الفراغ الموجود إثر تحالفها مع الموحدين ومع بني حفص. وأحيانا يكون

---

28) ن م، VI، 146

استقدام هذه القبائل بإرادة من السلطان نفسه. وعند حديثه عن الكعوب قال ابن خلدون : "أنزلهم السلطان بساح القيروان...".

إضافة لهذه الحركية الجغرافية الدائمة هنالك حركية اجتماعية شملت المجموعات والأفراد على السواء. فالعديد من القبائل حبّذت الإستقرار وتغيير نمط عيشها وأنشطتها مثل : أولاد عطية من دريد الذين : "عجزوا عن رحلة القفر وتركوا الإبل واتخذوا الشاة والبقر وصاروا في عداد القبائل الغارمة..." وغيرهم كثير. أما البعض فقد أضعفتهم الفتن مما جعل السلطان أوبعض القبائل القوية الأخرى يضعون عليهم الأتاوات (الضرائب). "وأصاروهم خولا ورعية..." وعلى مستوى الأفراد نلاحظ أن بعض المدن قد استقطبت أشخاصا كانوا يعيشون مع قبائلهم فتخلوا عن حياتهم الأولى محبذين الحضارة على البداوة وقد اهتمت كتب الطبقات (مثل كتاب معالم الإيمان لإبن ناجي) بالبعض منهم وهم الذين أصبح لهم دور ديني بارز في إطار حركة الزوايا التي انتشرت في تلك الفترة. ومن بين هؤلاء يمكن أن نذكر [29] :

- أبورحمة غيث بن قاسم الحكيمي المتعبد (من حكيم)
- صولة بن خليفة الليلي (من أولاد أبي الليل)
- زيد بن عبد الرحمان الكعبي (من الكعوب)
- ميمون بن زيد الكرفاح الوائلي (من بني وائل)

كذلك من بين مظاهر الحركية ظهور أشكال علاقات تتجاوز القبيلة من ذلك علاقات التصاهر التي تتحول من مظهر من مظاهر التحالف إلى شكل من الإرتقاء الإجتماعي وإن كانت أمّهات أغلب سلاطين بني حفص من العلجيات فإن أمّهات بعضهم من قبائل بدوية مثل : ظبية أم السلطان

29) ابن ناجي، معالم الإيمان الجزء الرابع، تونس 1978، ص 34، 104، 148

أبا حفص عمر. وجوهرة أم السلطان أبا فارس عبد العزيز وهي من المحاميد عرب طرابلس.

ب- الفتنة الدائمة :

قبل الحديث عن هذه الفتنة الدائمة التي عرفتها إفريقية لعدة قرون وكانت القبائل البدوية هي الحطب الذي جعل نار الفتنة لا تخمد قط لا بد من الملاحظة أن هذا القبائل لم تكن تطلب السلطة. وعكس فكرة ابن خلدون القائلة بأن: غاية العصبية : الملك. فإنه في هذه الفترة تمّ تهميش هذه القبائل وتحول مدار الصراع من البحث عن السلطة إلى : الصراع من أجل البقاء أومن أجل الإمتيازات والكثير من القبائل تذهب ضحية ولائها لهذا الطرف أوذاك دون أن تجني شيئا من الصراع في إطار معادلة يحكمها قانون "البقاء للأصلح". فالضعيف يتراجع ويندثر والقوي يجني ثمار قوته آنيا في انتظار مرحلة لاحقة من الضعف والتشرذم والإندثار هذا يفسر لنا تعاقب سيطرة القبائل البدوية (من هلال وسليم) على إفريقية طيلة عدة قرون. ففي البداية كانت إفريقية بأكملها تحت سيطرة قبائل رياح الهلالية وخاصة منهم الذواودة وما الموحدون (والحفصيون) بالنسبة إليهم سوى غزاة قادمون من الغرب وقد تحالفت بطون رياح مع ابن غانية ضد الموحدين وفي المقابل تحالف الموحدون مع بني سليم (مرداس + علاق) وانتهى الصراع بانتصار الموحدين وحلفائهم الذين طردوا رياح نحوالغرب واستقروا بإفريقية عوضهم. ومنذ بداية القرن 7هـ/13 م تم افتتاح مرحلة جديدة امتازت بمساندة : الكعوب من سليم للسلطة ومعارضة الدواودة (من رياح) وهي معادلة استمرت حتى نهاية القرن 7هـ/13م.

أما مع بداية القرن 8هـ/14 م فقد انقسم الكعوب على أنفسهم وظهر نتيجة ذلك فريقان قويان : أولاد أبي الليل وأولاد مهلهل. وقد تغيرت التحالفات بين القبائل والسلاطين الحفصيين عدة مرات نتيجة الصراعات بين الأمراء الحفصيين أنفسهم ويتحدّد موقع كلّ قبيلة حسب ولائها لهذا

الطرف أو ذاك فأحيانا نجد أولاد أبي الليل مع السلطان الشرعي وأولاد مهلهل مع الأمير الثائر وأحيانا نجد العكس. وأثناء القرن 9هـ/15 م بدأت تظهر مجموعات جديدة مثل: أولاد مسكين وأولاد يعقوب والشنانفة المنحدرين من أولاد مهلهل. وكذلك الحنانشة وقرفة المنحدرين من الذواودة... وفي كل مرة تتغير التحالفات حسب توزع المصالح والمنافع واقتسامها بين السلطان وهذا الطرف أو ذاك. ويمكن أن نلخص هذه المتغيرات في الجدول التالي :

السنة أو الفترة	مع السلطان	ضد السلطان
بداية القرن 7هـ/13م	مرداس+علاق (من سليم)	الذواودة (=رياح من هلال)
628هـ	علاق	الذواودة + مرداس
639هـ	علاق+مرداس+رياح	(ضدّ يغمر ابن صاحب تلمسان)
648هـ		الذواودة
651هـ		الذواودة (مع الأمير أبي إسحاق)
664هـ		الذواودة
666هـ	الكعوب (من علاق)	
681هـ	الكعوب	دباب (مع الدعى)
683هـ	الكعوب : أولاد أبي الليل	دباب (مع الدعى)
683هـ	الكعوب : أولاد أبي الليل	الذواودة (مع الأمير أبي زكرياء)
685هـ	الكعوب : أولاد أبي الليل	دباب (مع الأمير أبي زكرياء)
687هـ	الكعوب : أولاد أبي الليل	دباب (الجواري + المحاميد) مع زكرياء
بداية من 705هـ		الكعوب : أولاد أبو الليل
709هـ	الكعوب : أولاد مهلهل	الكعوب : أولاد أبو الليل
711هـ	أولاد أبي الليل	أولاد مهلهل
717هـ	حمزة ابن أبي الليل	عمر ابن أبي الليل

717هـ	الجواري	أولاد أبو الليل
725هـ	أولاد أبي الليل	الذواودة
728هـ	أولاد أبي الليل	
730هـ	أولاد أبي الليل	أولاد مهلهل
732هـ	أولاد أبي الليل	دباب
744هـ		سحيم (من بني سليم)
747هـ		أولاد أبي الليل
748هـ	أولاد مهلهل	أولاد أبي الليل
751هـ	أولاد أبي الليل	أولاد مهلهل
755هـ		أولاد مهلهل
767هـ	الكعوب	الذواودة
770هـ	الذواودة	أولاد أبي الليل
777هـ	أولاد مهلهل + حكيم	أولاد أبي الليل
782هـ	أولاد أبي الليل	رياح + مرداس
783هـ	أولاد أبي الليل	أولاد مهلهل
786هـ	دباب	الذواودة
794هـ		أولاد أبي الليل
810هـ		حكيم
811هـ		حكيم
833هـ		الذواود
838هـ		حكيم
839هـ		أولاد أبي الليل
840		بني سيلين
842هـ		بني سيلين
846هـ		بني سيلين
867هـ		أولاد مسكين + أولاد يعقوب + الشنانفة
869هـ	الذواودة	

III- المجتمع البدوي ودوره في الحياة الإقتصادية والسايسية :

أ- دور البدو في الحياة الإقتصادية :

ساد الإعتقاد لمدة طويلة أن النشاط الوحيد للقبائل البدوية هو العمل العسكري (الإرتزاق) لكن رغم أهميّة هذا النشاط فإن جموع البدو كانت لهم مشاركة هامة في الحياة الإقتصادية على جميع مستويات الإنتاج والتبادل والإستهلاك.

- الإنتاج :

تمثل نشاط البدو الرئيسي في تربية الماشية وأساسا الإبل لكن البعض من القبائل اتجه إلى تربية الغنم والبقر، وقد ارتبط ذلك بحالة نصف بداوة (semi-nomadisme) عرفتها هذه القبائل. وقد ذكر زائر أوروبي دخل البلاد في أوائل القرن 10هـ/16م أن "هؤلاء العرب أغنياء في مجملهم كثير منهم من لديه 300 أو1500 جمل، يستخدمون هذه الإبل لنقل العديد من المواد أو لخدمة الأرض أو للإستهلاك..." [30].

وإضافة لتربية الماشية حاول البعض إستغلال الأرض ولو بصفة غير مباشرة أو موسميّة وفي معالم الإيمان يذكر لنا ابن ناجي ما يلي : "كان شيوخ رياح ينزلون منزلتهم على بلد الحضرميين ونحوها من عمالة القيروان ولهم بها بلاد وهناشر يأخذون أحكارها وأعشارها بأمر السلطان..." [31] وكانت هذه الحالات نادرة ولا تهمّ سوى شيوخ القبائل واستغلالهم للأرض اقتصر على الحصول على ريع معين في شكل ضرائب مفروضة على المستغلين المباشرين. وكان السلطان عادة هو الذي يقطع هذه الأراضي للقبائل. ويذكر لنا الشمّاع أن شيخ الموحدين ابن

---

30) بيدرومارتيناز مونتانيز، مخطوطات المكتبة الوطنية بمدريد المتعلقة بالعلاقات بين إسبانيا وتونس خلال القرن السادس عشر، الكراسات التونسية عدد 69-70-1970، ص 125

31) معالم الإيمان، IV، 118

تافراجين قال لأشياخ بعض القبائل الحليفة للسلطان : "أنتم لا بدّ لكم من وكيل ينوب عنكم في مجابي بلادكم فانظروا ما تبلغ حاجتكم في كلّ عام فأنا أوفيها لكم..." (32).

وأكثر من ذلك تدخلت بعض القبائل بحكم قوّتها وحاجة السلطان إليها في بعض الأنشطة والقطاعات السلطانية (التي يهيمن عليها السلطان) وأثناء حديثه عن أبي العباس الفضل قال ابن أبي دينار : "شاركته العرب في الديوان ورحبة الطعام (الحبوب) والماشية..." (33). هكذا يمكن القول أنّ هذه القبائل كانت تسيطر على جزء كبير من الثروة : مواشي، ربع، ضرائب... وهو ما سينعكس على دورها في التبادل والإستهلاك أيضا.

- التبادل والإستهلاك :

مهما توترت العلاقات بين البدوو الحضر أو بين البدو والفلاحين المستقرين فإن كل طرف منهم في حاجة لمنتوجات الآخر وكان أهل البادية يستهلكون بعض مصنوعات المدينة مثل : الأسلحة والأخفاف الرواحي ويذكر الوزير السراج أن ابن ناجي : "أفتى بتحريم مبايعتهم السلاح حتى الأخفاف والرواحي..." (34). وفي المقابل كان السكان الحضر في حاجة للماشية وللصوف. وحتى الحبوب التي لا دخل للبدو في إنتاجها فإنها لا تصل المدينة إلا بفضل بعض القبائل البدوية التي جندت نفسها لخفارة (حماية) القوافل بالمقابل طبعا. ومثلت هذه الخفارة نشاطا موازيا للمبادلات وحاميا لها وموردا ماليا لبعض القبائل.

---

32) الشماع (أبوعبد الله محمد) الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تونس، 1984، 102.

33) ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تونس 1967، 148

34) السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، بيروت 1981، ج I، 1059

وبصفة عامة اتخذت هذه المبادلات التي كان البدو يمثلون طرفا أساسيا فيها شكلين رئيسيين : المبادلات البعيدة المدى بين الواحات والتل والمبادلات المباشرة بين المدن والبوادي المحيطة بها.

فيما يخص النوع الأول أي المبادلات بين الواحات والتل تجدر الملاحظة أن البدو وحدهم كانوا قادرين على القيام بها لا لشيء سوى أنهم كانوا يسيطرون على وسيلة النقل الأساسيّة أي الإبل. فالمواد المتبادلة هي التمور التي يقع نقلها من الجنوب نحو الشمال والحبوب التي يقع نقلها في الإتجاه المعاكس وهذه المواد الثقيلة الوزن لا يقدر سوى الجمل على حملها مسافات طويلة لذلك سيطرت القبائل البدوية سيطرة كلية على هذا النوع من المبادلات الذي ارتبط أيضا ببداية استقرار البعض منها مدة أطول في هذه المنطقة أو تلك وكذلك بالإهتمام أكثر بتربية الغنم وما يتبعها من رحلتي الشتاء (نحو الصحراء) والصيف (نحو التل)...

أما النوع الثاني من المبادلات فهو يتجاوز المواسم ويتبع نسقا سريعا بحكم قرب المسافات فهو إما يومي أو على الأقل أسبوعي (حيث تكون المدينة ملتقى للأعراب المجاورين لها).

والنسبة الكبيرة من المبادلات تتم حسب هذه الطريقة التي تعبر في الوقت نفسه عن التكامل بين العالمين المتولد عن الحاجة المتبادلة وعن التناقض والعداء بينهما. ففي الوقت الذي غلبت فيه ماشية البدو على أسواق المدن كان الفقهاء يفتون بعد جواز الشراء من الأعراب بإعتبار أن منتوج هؤلاء يمكن أن يكون حصل لهم نتيجة الغصب.

وبالطبع لا يمكن لفتاوى الفقهاء أن تمنع المدينة من شراء منتوج البدو (ربّما بأثمان بخسة) وفي المقابل تمكنهم من مصنوعاتها بثمن ربما كان أرفع...

أخيرا لا بدّ من الملاحظة أن القبائل البدوية لم تستفد من سيطرتها على وسيلة النقل البرية الأساسية "الجمل" ولا من سيطرتها على مسالك التجارة الداخلية (سواء من باب التجارة أو الخفارة) لكي يطوّروا التجارة الصحراوية التي كانت منذ قرون سببا من أسباب ازدهار دويلات بلاد المغرب والسبب في ذلك أن تلك الفترة عرفت تحوّلا هامّا تمثل في بروز التجارة البحرية وكان المستفيد منها طرفان فقط: السلطان بإفريقية والأروبيون من خارج البلاد بحكم سيطرتهم على وسائل النقل البحري.

ب- دور البدوفي الحياة السياسية :

اعتبر ابن خلدون أن : الملك هوغاية للعصبية والحضارة غاية للبداوة". كما أنه ربط تكون الدولة نتيجة التقاء العصبية القبلية بالدعوة الدينية وهذا التصور وإن كان ينطبق على الأشكال السياسية والدويلات التي ظهرت حتى انتصاب الفاطميين وامتدادهم بإفريقيّة الزيريين فإنّه سيختفي فيما بعد. فالعصبيات القبليّة المرتبطة بالهلاليين والتي أصبحت تسيطر على الأوضاع بإفريقيّة لم تعد غايتها الملك. ولا كانت هذه القبائل تحبذ الإستقرار وبناء المدن. والسبب الرئيسي في ذلك هو أن النشاط الوحيد الذي كان قادرا على استيعاب هذه الجموع وجعلها تنصهر في الواقع المحلي هو "النشاط العسكري" لكن ذلك لم يمنع هذه القبائل من كونها أصبحت تمثل عنصرا هاما من الآلة السياسية المسيرة للبلاد وأصبحت تمثل إحدى مكونات الواقع السياسي فالملك حسب التحليل الخلدوني ينبني على أساسين : الشوكة (أي العصبية أو الجند) والمال. وقد وفّر الهلاليون الأساس الأول ولكنهم وإن استفادوا من السلطة فإنهم لم يتسلموها بصفة مباشرة.

ومنذ بداية العهد الحفصي شاركت القبائل البدوية في جند السلطان الذي قال عنه ابن فضل الله العمري : "وعدّة العسكر لعلّها لا تبلغ عشرة

آلاف فارس، وأمّا العرب أهل البادية فعددهم جمّ ولهم إقطاعات كثيرة وشوكتهم قويّة..." [35]. أما الرحالة الأوروبي آدورن الذي زار البلاد أثناء القرن 9هـ/15م فهو يعطينا رقما عن عدد أفراد البدو الذين يستعملهم السلطان : "ويستعمل السلطان ثمانية أو تسعة آلاف عربي (بمعنى بدوي) يجازيهم بكرم. وهم رجال شجعان ومحاربين ممتازين..." [36]. وفي الحقيقة لم يمثل هؤلاء جندا نظاميا قارّا بل كانوا عبارة عن فرق رديفة تمثل قبائل بأكملها ويستعملها السلطان وقت الحاجة مقابل منحهم امتيازات هامة وحسب ابن خلدون : "... انبسطت أيدي العرب على الضاحية وأقطعتهم الدولة حتى الأمصار وألقاب الجباية ومختصّ الملك وما زالوا يغالبون الدولة حتى غلبوا على الضاحية، قاسموهم في جبايات الأمصار بالإقطاع..." [37].

هذه العلاقة بين البدو والسلطان بقدر ما سمحت بالحفاظ على استقرار الحكم في يد الحفصيين فهي قد ساهمت في إضعافها (سلطة = رهينة مراكز النفوذ البدوية). ونتيجة التحالفات والتحالفات المضادة أصبحت الحرب تمثل داخليا النشاط الأساسي. والحاكم أو الدولة يستمدان شرعيتهما من تواصل هذا النشاط وبالتالي أصبحت البلاد تعيش حالة"الحرب المزمنة". فقد كان لتعاطي القبائل البدوية للإرتزاق العسكري كنشاط رئيسي وارتباط جزء منها بالسلطة المركزية دور في جعل الحرب تتخذ شكلا لا متناهيا ففي كل فترة أو مرحلة ومع كل تغيير في أعلى هرم السلطة نلاحظ اقتسام الأدوار بين مجموعات محالفة للسلطة وأخرى ضدها وكان العامل المحرك لهذه الطاقات القتالية المتناحرة هو الحصول على الإمتيازات المادية بدرجة أولى فالمجموعات الحليفة للسلطة لا تدفع

35) ابن فضل الله العمري، قطعة من مسالك الأبصار، نشر وتعليق ح ح عبد الوهاب، تونس، د ت 36.

36) R. BRUNSCHVIG, Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XVème, Edit. Larose, Paris, 1936, p.115.

37) العبر، VI، 156

ضرائب بل إنها تفرض ضرائب لصالحها. وذكر عبد الله الترجمان صاحب تحفة الأريب : "وكان عرب إفريقية يحاصرون المدائن ويشاركون في مجابيها قهرا..." [38]. وهكذا أصبحت هذه القبائل تقتسم السلطة مع أصحابها الشرعيين. لذلك بقيت السلطة ضعيفة لأن مداخيل الدولة أصبحت موزعة من خلال إقطاع المجابي (الضرائب) للقبائل الحليفة أومن خلال الأرزاق الموزعة عليها...

خاتمة :

نلاحظ من خلال ما سبق تبادل توزيع الأدوار بين قبائل المخزن والقبائل الأخرى المناهضة. وتغير الأدوار من مرحلة إلى أخرى يجعلنا نتحدث عن مجتمع انقسامي (société segmentaire) وهو مجتمع يتميز بـــ [39] :

- ضعف تقسيم العمل
- سيطرة الأشكال الجماعية للملكية (خاصة الأراضي أوريعها)
- تمركز الحياة الإجتماعية حول العلاقات العائلية (العصبية القبلية)
- قوّة الوعي الجملعي واعتناق الجميع لمنظومة قيم موحدة.

ومن جهة أخرى تعتبر القبيلة أهم وحدة اجتماعية-سياسية. فهي أوسع مجموعة يشعر أعضاؤها بواجب التكتل من أجل الغزو والدفاع. وموقع القبيلة في إطار النظام السياسي يتحدد إنطلاقا من التوازن بين

---

38) عبد الله الترجمان، تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، القاهرة 1904، ص 17

39) اعتمدنا بالنسبة لمسألة الإنقسامية على الإستنتاجات المفيدة التي قدمتها ليليا بن سالم في مقالها : التحليل الإنقسامي لمجتمعات المغرب الكبير : حصيلة وتقييم. ضمن كتاب الأنتروبولوجيا والتاريخ، حالة المغرب العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 1988، ص 11-42

نزعتي الإنشطار والإنصهار في نفس الوقت وهما نزعتان متناقضتان متكاملتان :

(الإنشطار= تعارض القسمات الإجتماعية فيما بينها)

الإنصهار = تحالف هذه القسمات كلما ظهر خطر خارجي).

ويتحدد السلوك حسب هاتين النزعتين في مختلف المستويات حسب نوعية الصراع وأطرافه، وبذلك يصبح توزع مستويات التعارض وترتيبها هو الذي يتحكم في السير العام للنظام القبلي ويحدد من جهة أخرى موقع وعلاقة القبيلة مع السلطة المركزية.

هذا السلوك الإنقسامي يفسر لنا كيف أن بعض القبائل كانت في فترة معينة مع السلطة ثم أصبحت فيما بعد ضدها حتى أننا في بعض الفترات نجد بطونا من نفس القبيلة مثل أولاد أبي الليل وأولاد مهلهل المنتميتان للكعوب تتصارع فيما بينها بحكم موقع كل منها من السلطة السياسية (مع السلطان أو ضدّه).

هذه الظاهرة استفاد منها السلطان الذي لم يعد مرتبطا بعصبية واحدة. وقد تمكن الحفصيون من الإستنزاف التدريجي لهذه الطاقات القتالية (القبائل). والعصبية التي تضعف وتصبح غير قادرة على توفير ركيزة السلطة الأولى (الشوكة) يتم تعويضها أقوى منها.

وهكذا يمكن أن نجيب على تساؤلنا لماذا دامت الدولة الحفصية ثلاثة قرون ونصف. لأننا في زمن ابن خلدون نفسه تجاوزنا شكل الدولة العصبوية (الدولة الخلدونية المرتبطة بعصبية مؤسسة : وعمرها ثلاثة أجيال=120 سنة) إلى الدولة السلطانية أي دولة السلطان التي تمكّنت بفضل تحكم ذكي في أطراف المجتمع الثلاثة : السلطة - المجتمع الحضري- المجتمع البدوي. من التسامي على المجتمع والسيطرة عليه.